مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 807-822

الشيخ عمار بن لزعر ودوره الإصلاحي في وادي سوف

The world's Ammar Ben Lazaar and his reformist role in WAD SOUF

عبد القادر تركي*
جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي (الجزائر).
البريد الالكتروني المهني: terki-abdelkader@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/23	2022/04/05	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على حياة أحد أهم العلماء الإصلاحيين في منطقة الجنوب الشرقي الجزائري، وهو الشيخ العالم عمار بن لزعر القُماري، وكذلك إبراز دوره الإصلاحي والتربوي بمنطقة قمار ووادي سوف عموماً، وباستخدام المنهج التاريخي والمنهج الوصفي. تمت الاستعانة بأهم المصادر التي تناولت تاريخ المنطقة، إضافة إلى الروايات الشفوية. والتي قمنا بتطبيقها على عينة الشيخ عمار بن لزعر.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح ؛ عمار ؛ لزعر ؛ قمار ؛ العلماء

Abstract:. The aim of this research is to highlight the life of one of the most important reformist scientists in the Algerian south-east, the world's Sheikh Ammar Ben Lazaar, as well as to highlight his role as a reformist and educationalist in Guemar and Wadi Souf in general, using the historical and descriptive methods. The main sources on the history of the region, as well as oral accounts, were used. Which we applied to Sheikh Ammar ben Lazaar sample.

Keywords: *reform; Ammar ; Lazaar ; Guemar ; Scientists*

مقدمة:

شهدت الجزائر مع بدايات القرن العشرين حركة إصلاحية، قادها مجموعة من شيوخ العلم ممن تأثروا بالمتغيرات الحاصلة سواء في دول المغرب العربي أو تلك التي حدثت

* المؤلف المرسل

في المشرق العربي، منها تكوين الجمعيات وانتشار الصحافة، التي ساهمت في إعادة إحياء التراث العربي والإسلامي، وربط الفرد المغاربي بروح الإسلام ودعوة السلف الصالح، تكللت الدعوة الإصلاحية في الجزائر بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 التي قادت النشاط الإصلاحي وأخذت على عاتقها بثها في جميع أنحاء الجزائر.

كانت منطقة وادي سوف من بين مناطق الجزائر التي شهدت حركة علمية نشيطة غذتها روح الإصلاح بفضل جهود علمائها وتلامذتهم، رغم ما كان فيها من خصوصية استحكام الطرق الصوفية في المشاهد العامة للحياة فيها، وكانت حاضرة "قمار" من بين منارات العلم التي تشع بوادي سوف، ويرجع الفضل في ذلك لمجموعة من العلماء تعلموا في الزيتونة وتأثروا بروح الإصلاح والدعوة للتجديد، كان في مقدمتهم وأبرزهم الشيخ المصلح عمار بن الأزعر القُمَارِي، الذي يرجع إليه الفضل الأول في جعل قمار مركزا للدعوة الإصلاحية، هذه الدراسة والتي تحمل عنوان "**الشيخ عمار بن لزعر ودوره الإصلاحي في وادي سوف**"، سوف نعرض من خلالها موضوع بدايات الحركة الإصلاحية في واد سوف، وذلك من خلال الإجابة على الإشكاليات التالية: كيف كانت أوضاع منطقة وادي سوف مع بداية دعوة الشيخ الأزعر الإصلاحية؟ وما هي جهود الشيخ الإصلاحية في المنطقة؟ وما هي نتائج هذه الدعوة؟

1. التعريف بالعالم عمار بن لزعر - مولده ونشأته:

هو عبد الله بن الطاهر بن أحمد بن محمد لزعر القُمَاري المدني، ولد بقمار سنة 1316ه من عائلة فقيرة ولكنها متمسكة بدينها ومحافظة عليه (بن يعقوب الكتبي الحسني، 2016، صفحة 377)، وانتقل طفلا مع والده نحو قرية "فلياش" ببسكرة، ومنها انتقل إلى سيدي عقبة حيث حفظ القرآن الكريم (سعد الله، 2010، صفحة 309)، ثم عاد بعدها إلى مسقط رأسه بمنطقة "قمار"، أين دخل الكتاب، ومن ثم التحق بزاوية سيدي المولدي بتونس

الشقيقة، حيث كان النظام بهذه الزاوية داخلي يقصده الفقراء من الجهات المجاورة لها لتلقي حفظ كتاب الله وحفظ بعض المتون الفقهية، وفي العاشرة من عمره أتم حفظ كتاب الله بهذه الزاوية، ليرحل بعدها إلى تونس العاصمة مشياً على الأقدام ليتم تعليمه ويوسع مداركه الفقهية، أين التحق بجامع الزيتونة وانخرط في سلك التعليم وانكب على مطالعة الكتب وسماع حلقات الدروس، وقد تتلمذ هناك على يد أكبر العلاء كالشيخ الصادق النيفر والشيخ أبو الحسن النجار والزغواني والطاهر بن عاشور وغيرهم، وقد مكث هناك تسع سنوات تخرج فيها بشهادة التطويع سنة 1343هـ/1927 (الحسني، 2016، صفحة: 378- 379).

2. جهوده الإصلاحية في وادي سوف:

تميز العصر الذي باشر فيه عمار لزعر دعوته باستحكام قبضة الاستعمار الفرنسي على الجزائر عامة ووادي سوف خاصة، هذا ما تسبب في تردي الوضعية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وانتشار العادات الفاسدة كشرب الخمر والغش والرشوة، كما عمل المستعمر على بث التفرقة بين أهل سوف خاصة بعد ما درس طبيعة المجتمع السوفي القائم على العروشية والطُّرُقية، فعمل على التقرب من بعض رؤساء الطرق الصوفية ونشر بينهم العداوة والبغضاء حتى يتفرق شملهم وتتمزق وحدتهم، وكانت نتيجة هذه الأوضاع أن انتشرت الأمية بين الأهالي وتفشت روح العداوة بينهم مما أدى بالشباب بالانغماس في حياة اللهو والمجون وغاية المستعمر في كل ذلك هي الاستحكام في البلاد والعباد (عثماني، 2017، صفحة 99).

إن حاضرة "قمار" كانت دوما تعرف نشاطا ثقافيا دءوبا، فهي العاصمة الثقافية لمنطقة سوف، وذلك نتيجة للدور الذي تقوم به المساجد مما جعلها تعرف باستمرار بروز شخصيات وأعلام ساهموا في تفعيل الحركة الثقافية ليس على مستوى بلدة قمار فقط بل في كل أرجاء سوف، ولِتَتَعدَّاها إلى واد ريغ، ورغم طغيان العادات والتقاليد المغلوطة

بقمار إلا أن النشاط التعليمي كان ذا حركة مستمرة وفاعلة، لكون أهالي قمار شغوفين بالعلم والتعلم فكان هذا من أهم أسباب انتشار المدارس والكتاتيب بالبلدة، كما عرفت الحاضرة حركة علمية نشيطة، ورغم محاولة القضاء على هذه الحركة في مهدها من طرف أعداء العلم منذ الحرب العالمية الأولى خوفاً من تأثيرها على عامة الشعب وتأليبهم على السلطات الاستعمارية، فقد تَحَامَلَ بعض مريدي الطرق الصوفية على هذه الحركة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية التي كان بقاء الناس على جهل يخدم مخططاتها الاستعمارية، لكن رغم ذلك فقد حمل البعض من الشخصيات العلمية مسؤولية مواجهة هذه المخططات والتصدي لها وإفشالها وكان من بينهم الشيخ عمار بن لزعر (بن موسى، 2006، صفحة 132.)

لقد احتضن أهل الجنوب ومنهم أهل وادي سوف الحركة الإصلاحية منذ إرهاصاتها الأولى في الربع الأول من القرن العشرين، لتتجسد عمليا في بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931، وتعود أسباب اعتناقهم للفكر الإصلاحي بالدرجة الأولى إلى سببين رئيسيين، تمثل الأول في طبيعة أهل هذه المنطقة وعاداتهم وتقاليدهم العريقة العربية والإسلامية وتمسكهم بلغتهم العربية، التي تنفر من كل ما من شأنه المساس بالعقيدة الإسلامية وهذا الاتجاه قد غذَّاه الاستعماري الفرنسي الذي حل بوادي سوف، فقدوم الاستعمار وما جلبه من سياسات تجهيلية تبتعد بالفرد عن جوهر الدين الإسلامي عزَّزَت لدى الفرد السوفي سبل البحث في ما يجنبه التأثر بتبعات السياسة الاستعمارية ووجد ضالته في الحركة الإصلاحية، أما عن السبب الثاني فيتمثل في وجود بعض المراكز التثقيفية العربية الهامة مثل بعض الزوايا التي حافظت على دورها التهذيبي والتعليمي، كزاوية سيدي سالم وغيرها (زواري، 2017، صفحة 163).

يصف الدُّكتور أبو القاسم سعد الله تلك البيئة بقوله: «الجهل مطبق، والطُّرقيَّة مستحكمة، والاستعمار بواسطة القائد مُسيطر ومخيف، يضاف إلى ذلك تقاليد بالية

وعقليَّات جافة»، فهي إذًا «ظروف كلها ضدّ العلم وأهله ولا سيما إذا كان من المصلحين»، ويقول: «أمَّا النُّفوذ الروحي (الدِّيني) في «سوف» فقد كان في أيدي الطُّرق الصُّوفيَّة الَّتي من أهمِّها في أوائل القرن العشرين: القادرية والتِّجانية والرَّحمانيَّة والشَّابية. وكان الفرنسيون يحكمونها عن طريق المكتب العربي (بيرو عرب) وباعتبارها من مناطق الجنوب»، فحكَّام الجنوب هم العسكريون، والحكَّام في الشَّمال مدنيُّون، وبلدة قمار من الدَّائرة العسكريَّة بعمالة قسنطينة (سمراد، 2008، صفحة 60).

في ظل هذه الظروف رجع الشيخ لبلدته قمار سنة 1924 وهي الفترة التي واكبت حركة إصلاحية للعلماء في الجزائر، فعقد العشرينات كان مرحلة تخمر فكرة الإصلاح وذلك منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وقد شهدت هذه الفترة أيضا بدورها حواضر سوف الأساسية قمار والزقم والوادي حركة علمية كبيرة خاصة بعد عودة العديد من طلبة العلم من جامع الزيتونة، ومن بينهم الشيخ عمار ين لزعر، الذي أعتبر قائدا للحركة العلمية بقمار (عثماني، 2017، صفحة 101- 102).

كان أهل قمار يبحثون عن من يثقفهم ويعلم أبناءهم فاتصلوا به داعين إياه للإقامة عندهم ونشر التعليم بينهم واجتمعت عليه كلمتهم في البداية، فرجع إلى قمار وباشر التعليم في المسجد وفي منزله (سعد الله، 2010، صفحة 309)، وقد أوردت جريدة "النجاح" في عددها الصادر سنة 1927 عن دعوة أهل قمار للتدريس بينهم ما يلي: «وقد اتفقت أهالي البلدة (قمار) على مبلغ 307 فرنكا يجازونه به في كل سنة، فأنجزوا ذلك في السنة الأولى والثانية وتأخروا بعد ذلك مع أن سكان البلدة 7500 نسمة، وكثيرهم أغنياء وتجار ولا يعلمون أن شرف نفوسهم وشرف أبنائهم العلم، وبالعلم سادت الأمم» (عثماني، 2017، صفحة 102).

لابد أن دراسة الشيخ في الزيتونة كان لها الأثر الكبير في مسيرة الشيخ الإصلاحية، فقد تزامنت دراسته هناك بنهضة علمية كبيرة في تونس التي شهدت تأسيس الجمعيات

والمدارس التي أخذت على عاتقها إحياء التراث العربي والإسلامي إضافة إلى الجهود التي قام بها شيوخ الزيتونة، كما تزامنت مع بداية تبلور الوعي السياسي وذلك من خلال الجهود التي قام بها الشباب التونسي في نشر الصحف والمجلات التي بثت الوعي السياسي والديني وأعادت ربط التونسيين بروح الإسلام وبداية المطالبة بالتجديد، ولاشك أيضاً أن الشيخ عندما كان يدرس بالزيتونة احتك بهذه الأفكار التجديدية وحين عودته للديار أراد نقل هذه التجارب لأهل بلدته خاصة لما رأى فيها تفشي البدع والخرافات وتفشي الجهل والأمية نتيجة السياسات الاستعمارية.

فجامع الزيتونة كان له الفضل الأول في محاربة الاستعمار الفرنسي في البلاد التونسية، وإلية ترجع جذور كل عمل نضالي بصفته الأمين عن التراث القومي والحضارة العربية الإسلامية، ولاشك أن جامع الزيتونة قد لعب دورا هاما وكبيرا في تثبيت معالم القومية العربية والثقافة العربية الإسلامية بطرق ووسائل مختلفة ففيه تتمثل أسمى معاني المجد القومي، كما تتمثل فيه أعرق القيم الروحية وأسماها (عبد الله، 1976، صفحة 219).

وهكذا استقر الشيخ بقمار وأخذ يلقي الدروس ويعمل على تغيير المعتقدات التي كانت موجودة بالحكمة، من ذَبحٍ ونَذر ٍ وتقديس، وقد ركز جهوده في فهم وتدريس التوحيد السلفي ودراسة الفقه الإسلامي والتاريخ وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وشعر (عثماني، 2017، صفحة: 101- 102)، وما إن استقر حتى بدأ بإلقاء الدروس في جامع السوق العتيق بالبلدة، وشرع في تغيير المعتقدات التي كانت راسخة في سكان المنطقة رويداً رويداً، هذه المعتقدات التي كانت تسيطر عليها البدع والخرافات، وقد ركز في دعوته على التوحيد السلفي والفقه الإسلامي والتاريخ وعلوم اللغة حتى أصبح يَؤُمُّ حلقته التي يحضرها جمع غفير من الكبار والصغار (الحسني، 2016، صفحة 379).

لقد كان الشيخ عمار لزعر من بين مؤسسي جمعية العلماء المسلمين في العاصمة 1931 ورئيسا لشعبتها في الجنوب، هذا ما أكده الشيخ بنفسه حينما سرد سيرة حياته لأحد تلاميذه في الحجاز وهو محمد سعيد دفتدار، هذا الأخير نشرها في مجلة المنهل السعودية بعد وفاة الشيخ (سعد الله، 2010، صفحة 309)، وهذا ما أكده الشيخ عبد الحميد رئيس الجمعية بقوله:« لما ارتفعت دعوة الإصلاح بالجزائر، كان في طليعة رجالها نبهاء من أبناء سوف المثقفين وعلمائها المستنيرين» (زواري، 2017، صفحة 164)، حيث وجهت الدعوة لجميع العلماء والمتصوفة لحضور الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05مارس 1931 بنادي الترقي بالعاصمة، وكان منهم علماء من وادي سوف ومن بين المدعوين الشيخ إبراهيم بن عامر والشيخ الطاهر العبيدي وأخوه أحمد العبيدي والشيخ ميداني موساوي، لكن هؤلاء لم يحضروا للاجتماع والسبب هو توليهم وظائف في الإمامة أو القضاء فضلا عن اعتبارات فكرية وآراء خاصة أقعدتهم عن التحرك لمثل هذا المنتدى، ولم يحظر من أهل سوف سوى محمد الأمين العمودي وحمزة بكوشة اللذان كانا مقيمان خارج الوادي أنذلك بالإضافة إلى الشيخ عمار بن لزعر الذي نال شرف حضور الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهو الشيخ الوحيد من الشيوخ المقيمين في الوادي الذي استجاب للدعوة، ولم يمضي عام على تأسيس الجمعية حتى أصبحت قمار تشهد حركة علمية لتعليم الشبان، وهذا ما جعل أعداء العلم يتصدون لهذه الصحوة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية (عثماني، 2017، صفحة 103).

كانت علاقة الشيخ لزعر بأهل البلدة حسنة في البداية، فكان يَؤُمُّ حلقته التي يحضرها كل أبنائهم بمختلف مشاربهم ومنهم أبناء الزاوية التجانية، وقد كتبت جريدة "النجاح" القسنطينية سنة 1927 عن دور عمار لزعر في تنشيط الحركة العلمية بقمار وعن الدور البارز الذي قام به في حركة الإصلاح ما يلي: «وفي مدة ثلاث سنوات مضت مَنَّ الله

على هذه البلدة، بالفقيه النبيه العالم العلامة السيد عمار بن الأزعر المتطوع بالزيتونة، فبث علمه بالبلدة فجزاه الله عنا كل خير، والأهالي فرحون مستبشرون مسرورون بهذا البدر الطالع على سماء "قمار" ونواحيها» (عثماني، 2017، صفحة 102).

ثمَّ بعد مضيّ نحو سنة، نشرت «النَّجاح» لكاتبها الخاص: «عن بلاد الصَّحراء: وادي سوف بعد عامين، نظرة عموميَّة في الحالة الرَّاهنة»، قال عن الحالة العِلميَّة: «أمَّا الحالة العلميَّة فهي خائبة للنِّهاية بحيث لا يوجد في «الوادي» كلِّه وفي «الزقم» و«البهيمة» و«الدبيلة» و«سيدي عون» و«حاسي خليفة» و«الدرميني» مدرِّس غير «قمار» الَّتي يوجد بها العالم المتطوِّع الشَّيخ عمَّار بن الأزعر الَّذي كنَّا نشرنا مقالاً عن زهد أهل «قمار» فيه وتهاونهم بحقوقه في الصَّائفة الفارطة، فكان الأمر أن جمعوا فضلاءهم وجدَّدوا عنايتهم به،...» (سمراد، 2008، صفحة 60).

ثم بدأت الضغوط عليه من الإدارة الاستعمارية وبعض رجال الطرق الصوفية عندما نهى عن البدع والخرافات ودعا للصحوة والعودة إلى طريق السلف الصالح في فهم الدين (سعد الله، 2010، صفحة، 309)، فكتب الأستاذ الأديب حمزة بوكوشة عن جولته في بعض جهات الوطن، ومنها زيارته لبلدة «قمار» سنة (1932م)، في جريدة «الوزير» التُّونسيَّة، فقال: «...بلدة "قمار" وهي تبعد عن الوادي 18 ميلاً، وبـــقمار حركة علميَّة لتعليم الشُّبَّان والشُّيَّب، قضى عليها أعداء العلم في مهدها خوفاً من شروق شمس الحقيقة فتكشف ستارهم، وقد استعانوا بسلطة الحكومة في إخفائها، ولكن أنَّى لهم القضاء عليها واقتلاعها من القلوب بعدما أتت هذه الحركة أكلها ضعفين!!... وقطب الحركة الإصلاحية بقمار هو الأستاذ "عمار الأزعر" الَّذي أُوذي في الله وعزَّزه أفاضل القرية وقاضيها ودائرته وقائدها، وما ضعفوا وما استكانوا» (سمراد، 2008، صفحة 60).

لقي الشيخ عمار لزعر عدة متاعب أثناء نشر دعوته حيث تعرض للضغط من السلطات الفرنسية لأنه لم يخضه لأحكامهم الجائرة، مما اضطره لمتابعة دعوته سرا بين

أتباعه الذين دعاهم لضرورة مقاومة الاستعمار وكل ما يكنه من دسائس للدين الإسلامي، ومن بين المصاعب والعراقيل التي واجهت حركة الشيخ عمار لزعر الإصلاحية أن سكان حي الباب الشرقي من بلدة قمار كانوا تابعين للطريقة التجانية وكان منزل الشيخ بالباب الشرقي فكان كل ما مرَّ أحد من المتصوفة التيجانيين يرمون بالحجارة على بيته فكانت زوجته وأولاده لا يخرجون لفناء المنزل إلا للضرورة، وكانوا أيضا ويحطمون لهم الأواني التي يخزنون فيها الماء "القُلَلْ"، وكان شعراءهم ينظمون فيه قصائد هجائية لتنفير الناس من حوله، كما تقدم مجموعة من سكان قمار بوشايته إلى القائد الفرنسي بالوادي، ففي أحد المرات أستدعي من طرف الضابط الفرنسي أين اتهم بتحريض الناس على النظام الفرنسي وأصدر الضابط قرار بمنعه من الوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس وعقد حلقات الدروس بالمسجد وهدده بحال المخالفة بوضعه في سجن "برج فطيمة"، لكن الشيخ تحدى تهديدات الضابط الفرنسي وذهب كعادته وألقى درسه بمسجد "الطلبة" بالسوق العتيق، وبفضل الشيخ تخرج جيلا من المصلحين ولا نقلل هنا إن قلنا بأن الصحوة والنهضة الإصلاحية التي عرفتها قمار ترجع للشيخ عمار لزعر وإلى جهوده وأفكاره الإصلاحية التي استغرقت ما يزهو عن إحدى عشرة سنة قضاها في الوعظ والإرشاد (بن يعقوب الكتبي الحسني، 2016، صفحة 379- 381)، وعندما اشتدت عليه المضايقات قرر الهجرة وكان قد ترك النبت قد نما والفكرة قد انتشرت ولذلك لم ينقطع الإصلاح واليقظة بعد هجرته (سعد الله، 2010، صفحة 310).

3. الصحوة التي أحدثها الشيخ في بلدته:

إن رحيل الشيخ المصلح عمار بن لزعر عن سوف لم يكن أبدا نهاية لدعوته الإصلاحية، بل كان بداية لفصل جديد للحركة إصلاحية بوادي سوف، تولى قيادتها بالأخص تلاميذه، فهو قبل رحيله أسس لدعوة إصلاحية متينة كان لها دور إيجابي في

رفض السياسات الاستعمارية التي تهدف بالأساس إلى طمس العروبة والإسلام محور مقومات الهوية الوطنية الجزائرية.

وبجهود الشيخ عمار التنويرية أخرج جيلا من المصلحين علمهم بعد أمية وجهالة؛ فأنقذ بذلك مجموعة كبيرة من أهل المنطقة من غياهب الجهل والتخلف، وهو ما يجمع عليه العديد من أهل قمار الذين تتبعوا الحركة الإصلاحية بها، أن الفضل في قيام هذه النهضة يرجع بعد الله إلى الشيخ عمار بن الأزعر وذلك بفضل جهوده الطيبة، ويعترف له كبار السن من أهل قمار حتى اليوم بذلك، وينوهون بمناقبه وبمقاومته الثقافية للمستعمر الفرنسي(عثماني، 2017، صفحة 104).

لقد تَتَلمذَ على يد الشيخ عمَّار الكثير من الطلبة الذين أصبحوا من رواد حركة الإصلاح في المنطقة وشاركوا بشكل إيجابي في نشاط جمعية العلماء المسلمين فيما بعد من أمثال الشيخ محمد الطاهر التليلي والعلامة عبد القادر الياجوري، ويقول أبو القاسم سعد الله في مقدمة كتبها لكتاب "**منظومات في مسائل قرآنية**" لصاحبه محمد الطاهر التليلي؛ عن أسباب هجرة عمار بن لزعر هو الضغط المسلط عليه من السلطات الاستعمارية ورجال الطرق الصوفية مما اضطره للهجرة للبقاع المقدسة (التليلي، 1986، صفحة 8).

أصبح للشيخ بن لزعر تلاميذ كثر وأنصار في مختلف أنحاء سوف، وكان من ممثلي جمعية العلماء المسلمين في الجنوب، ومن بين تلاميذه الشيوخ الذين اتجهوا مثله إلى جامع الزيتونة وتخرجوا منه أمثال محمد الطاهر التليلي وعبد القادر الياجوري والأخوين الحفناوي وعبد الكريم هالي وعلي بن سعد وغيرهم، وجميعهم اتبعوا نهجه في الإصلاح (سعد الله، 2010، صفحة 309).

لقد تأثر العديد من طلابه بأفكاره ومَنهجه حتى أن البعض سلك طريقه في الوعظ والإرشاد، وفي طلب العلم أيضا فقد حذا حذوه مجموعة من تلاميذه أين توجهوا لجامع

الزيتونة لطلب العلم، وعادوا إلى قمار مشبعين بروح الإصلاح الديني والسياسي، فقد تزامنت هجرتهم لجامع الزيتونة بالأوضاع السياسية السائدة هناك وتأثروا بالعمل الإصلاحي الذي قام به شيوخ وطلبة جامع الزيتونة وبما تقدمه الجمعية الخلدونية وغيرها من الجمعيات والنوادي، وزعماء الحركة الوطنية التونسية أمثال عبد العزيز الثعالبي والحبيب ثامر وغيرهم، فتأثروا بمطالب الحركة الوطنية المطالبة بالتجديد والتغيير، ونختص بالذكر تلميذه الطاهر التليلي الذي أصبح من زعماء الحركة الإصلاحية في المنطقة (التليلي، 1986، صفحة8)، فكان هذا الأخير مُدرساً وخَطيباً وإمَاماً بالمسجد الكبير بقمار وكان على اتصال دائم بأعضاء جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة، حيث حظر اجتماعها المنعقد في 21 جويلية 1946، كان من أبز المدرسين بمدرسة النجاح التي أسستها جمعية العلماء المسلمين بقمار (عطاء الله، 2018، صفحة 141).

تِلْمِيذَا الشيخ لزعر عبد القادر الياجوري وعلي بن سعد ساهما في تكوين خلية نشطة لجمعية العلماء المسلمين بقمار، فتكونت خلية قوية لجمعية العلماء بوادي سوف، وقد ازدادت هذه الخلية نشاطا وحيوية بزيارة الشيخ ابن باديس وصحبه إلى وادي سوف وزيارة ابن باديس ليست زيارة عادية, بل كانت حدثا له ما بعده, فالرجل لم يأتي للسياحة وزيارة القباب والشيوخ وطلب البركات, وإنما جاء لدعم مشروع وبث فكرة وإرساء قاعد ثابتة لحركة الإصلاح، ومن ثمة اشتمل البرنامج على تفقد شعب (فروع) الجمعية, وإلقاء الدروس في المساجد لتوعية العامة, وعقد اجتماعات مع علماء الناحية و أنصار الإصلاح، وكان الشيخ الياجوري من العناصر الفاعلة في هذه الأثناء, فهو الخطيب وهو المعلم, وهو الداعي للقاء ابن باديس والحديث إليه (سعد الله، خارج السرب: مقالات وتأملات، 2015، صفحة 121).

وقد كانت زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لوادي سوف في ديسمبر سنة 1937 وتشكل وفد الجمعية الذي زار المنطقة من الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، مبارك الميلي،

العربي تبسي، محمد خير الدين وحمزة بكوشة، وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق والصدى الواسع في أواسط السكان والتمكين للفكرة الإصلاحية في صفوفهم، فتحولت الكثير من المدارس في المنطقة إلى مدارس شبه عصرية على نهج جمعية العلماء وحسب برامجها (زواري، 2017، صفحة 165).

4. هجرته إلى البلاد المقدسة:

في عام 1352ه ودَع الشيخ مسقط رأسه لزيارة البقاع المقدسة وأداء فريضة الحج وبعد أداء المناسك رجع لقمار، بعد ذلك قرر قراره أن لا بقاء في ذلك الوسط الذي كثرت فيه المضايقات والظلم، ولابد من الهجرة وذلك خوفا على أهله وذريته من الفتن، وكان ذلك عام 1353ه حيث هاجر مع جمع غفير إلى البقاع المقدسة واستقر في المدينة المنورة، وكان خروجه من بلاده بمشهد عظيم اجتمع فيه الكثير من الناس فمنهم الفرح بخروجه ومنهم الباكي (الحسني، 2016، صفحة 382).

ومما يلاحظ أن الكثير من المهاجرين الذين هاجروا للمشرق ساهموا في نشر العلم والتعليم ومواصلة الإصلاح انطلاقا من قدرتهم الثقافية في التحصيل، فنجد أن الشيخ عمار لزعر من أكثر من استطاع أن يُبَرهِن عن دوره الفاعل في ذلك، حيث استقر بالمدينة المنورة في 05 ربيع الأول 1354ه/1935م، حيث يقول عن نفسه:« دخلت مدرساً في مدرسة العلوم الشرعية ثم حصلت على وظيفة في التدريس في المسجد النبوي، ثم انتقلت إلى مدرسة العلوم الشرعية وإلى مدرسة الحديث»، كما نجده يتحدث عن سيرة حياته فيقول:«سنة 1353ه وجت أنا ومن هاجر معي من التلاميذ من جلالة الملك المعظم إمام المسلمين الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه وأسكنه فراديس الجنان مع الصالحين والأبرار وجدنا منه كل مساعدة وإكرام إلى أن وصلنا المدينة المنورة في الخامس من ربيع الأول 1354 ه» (بن موسى، 2005- 2006، صفحة 110).

وفي المدينة المنورة استقبله العلماء وفرحو به، وعندما استقر بالمدينة اشتغل بالتدريس في مدرسة العلوم الشرعية بالقسم العالي ودرس بها ما يقرب عن 20 سنة الحديث وعلوم القرآن، وأصبح مدرسا بصفة رسمية في المسجد النبوي سنة 1366ه (الحسني، 2016، 383).

ورغم انشغاله بالدرس والتعليم، لم ينقطع اهتمامه ومتابعاته لأحوال وطنه المغتصب، وهذا بمجالسة الوافدين إلى البقاع المقدسة من أجل الحج والعمرة من الجزائريين عامة والسوافة خاصة، فيستقبل العلماء للإطلاع على أحوال البلاد، وكان عامة الناس من بلدته وغيرها من زوار الحرم يجلسون إليه مستفتين إياه في أمور دينهم ودنياهم، وقد سجل القماري الشيخ الحبيب حنيش في رحلته للحج سنة 1955 حرص الشيخ لزعر على رعاية القادمين من البلدة قمار سواء في مكة أو في المدينة، ويذكر أن الشيخ عمار قد إنضمَّ لحجاج قمار يوم الخميس من شهر جويلية وكان من بين المطوفين الذين طافوا بهم، وجاء بالعمال ليحملوا أثاث الحجاج (عثماني، 2017، صفحة 108).

كان الشيخ عمار بن لزعر مقصد العلماء الجزائريين الذين يقصدون بلاد الحجاز للحج أو غير ذلك فقد استقبل في بيته الشيخ العربي التبسي عندما قدم للحج سنة 1954 وأحسن ضيافته، ففي رسالة بعث بها الشيخ العربي التبسي إلى البشير كاشة ذكر له فيها صنيع الشيخ عمار معه وكلفه بإيصال السلام والشكر له، ومما جاء في هذه الرسالة:«...أخي! نُبْ عليَّ في إبلاغ تحيَّاتي إلى كلٍّ من عرفته وعرفني، أيَّام إقامتي بمدينة الرَّسول ، من رجال العلم والفضل وشرائع المروءات، شيوخ مدرِّسين، وأفاضل جزائريِّين وغيرهم، وعلى الأخصِّ أخانا الأستاذ عمَّار بن عبد الله...» (الفرحي، 2004، صفحة 81).

كما دعم الشيخ عمار بن الأزعر الثورة الجزائرية، حيث كان للشيخ الإبراهيمي دور كبير في تحريض الجزائريين المهاجرين بالمشرق على الجهاد بالمال لتحرير الوطن، وقد

كان يعمل مع بعض كبار الشخصيات الجزائرية الساكنة في المشرق على توحيد الجهود، والعمل بجدية، وعلى جمع كلِّ القوى، وكان الشيخ عمار ابن الأزعر الواسطة بينه وبين الجزائريين في الحجاز، إذ كان له دور كبير في تحريكهم لدعم الثورة الجزائرية بالمال (سمراد، 2008، صفحة 69).

5. وفاته وآثاره:

توفي الشيخ في 03 جمادي الثانية سنة 1389ه- 1969م عن عمر يناهز الثالثة والسبعين عاما بعد حياة حافلة بالجهاد المقدس وطلب العلم والتعلم كان فيها مثالا للعام والزعيم الذي يجهر بالحق، لقد ترك الشيخ عمار لزعر مكتبة قيمة تحتوي على عشرات الكتب والرسائل وترك بعض المخطوطات من تآليفه وتحقيقاته وفتاويه وحياته ببلدة قمار (الحسني، 2016، صفحة 383).

تعرضت مكتبة الشيخ للاحتراق فيما بعد، هذا ما أكده الدكتور أبو القاسم سعد الله، حيث ذكر أنه حينما توجه لزيارة الحرم خلال سبعينات القرن الماضي توجه لزيارة بيت الشيخ لزعر فوجد أن المكتبة قد تعرضت للاحتراق وأنه لم يبقى سوى القليل من آثاره المكتوبة (سعد الله، نصان الأول: للشيخ عمار بن لزعر (1894- 1996) والثاني: للشيخ إبن باديس في تفويض كتاب أعيان المغاربة تأليف إدموند غوفيون وزوجته مارثا، 2010، صفحة 308).

6. خاتمة:

تزامنت دعوة الشيخ عمار لزعر الإصلاحية وظروف أقل ما يقال عنها صعبة، ورغم ذلك حققت دعوته الهدف المبتغى منها فأحدث صحوة في بلدته قمار بصفة خاصة وبلاد سوف بصفة عامة، فغدت قمار من بعده مركزا للحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واستطاع الشيخ عمار لزعر بالنصح والإرشاد زرع

بذرة الصحوة الإسلامية فخروجه من قمار لم يكن نهاية لدعوته قط، فقد ترك بعده تلاميذ ساروا على نهجه وواصلوا طرق الإصلاح.

7. قائمة المراجع:

بريك الإمام. (2013/ 2014). الثورة الجزائرية في وادي سوف 1954- 1962 رسالة ماجستير. قالمة: جامعة 8 ماي 1945.

بن موسى موسى. (2005- 2006). الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939) رسالة ماجستير. كلية العلوم الأنسانية والاجتماعية، قسنطينة: جامعة منتوري.

التليلي محمد الطاهر بن بلقاسم. (1986). *منظومات في مسائل قرآنية*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.

الجباري عثماني. (جوان, 2017). المصلح الشيخ عمار بن الأزعر وجهوده في التحرير والتنوير بالديار السوفية. *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية جامعة الوادي ، العدد 13*، الصفحات 97- 113.

الحسني أنس بن يعقوب الكتبي. (2016). *أعلام من أرض النبوة* (المجلد ط1). المدينة المنورة: الخزانة الكتبية الحسنية الخاصة.

زواري أحمد جمال. (24 جانفي, 2017). مساهمة أعلام سوف في تأسيس الصحافة الإصلاحية في الجزائر (1925- 1940). *مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، العدد 9*، الصفحات 160- 195.

سعد الله أبو القاسم. (2015). *خارج السرب: مقالات وتأملات*. الجزائر: عالم المعرفة.

سعد الله أبو القاسم. (ديسمبر, 2010). نصان الأول: للشيخ عمار بن لزعر (1894- 1996) والثاني: للشيخ إبن باديس في تفويض كتاب أعيان المغاربة تأليف إدموند غوفيون وزوجته مارثا. *المصادر تصدر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 ، المجلد 12، العدد 22*، الصفحات 305- 326.

سمراد سمير. (جانفي/ فيفري, 2008). أعلام منسية الشيخ عمار بن الأزعر القماري السوفي. *مجلة الإصلاح تصدر عن دار الفضيلة للنشر ، السنة 2، العدد 7*.

عبد الله الطاهر. (1976). *الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة 1830- 1956*. تونس: منشورات دار المعارف للطباعة والنشر.

عطاء الله فؤاد بن أحمد. (ديسمبر, 2018). من أعلام الفكر في الجزائر الشيخ محمد التليلي رحمه الله. *الحوار المتوسطي ، المجلد 9، العدد 3*، الصفحات 138- 152.

الفرحي بشير كاشة. (2004). *إمام المجاهدين الشهيد الشيخ العربي التبسي*. الجزائر: منشورات دار الآفاق.